صباح العيد

« بقلم توفيق حلال »

* * *

— اماه ! اماه ! انظري ، ما أجمل هذه الشوارع وانظفها واظرفها ! انظري جماهير الناس يسيرون بها مبتسمين ، جذلين ، والاولاد لاعبين ، فرحين ! لا شك انهم كلهم شبعانون . انظري الى هذه السيدة عند الزاوية تقرع جرساً صغيراً والناس يلقون في قصعتها المعلقة نقوداً بسخاء . انظري الى الغلمان محيطين بذلك الشيخ الشائب ذي الملابس الحمراء واللحية الطويلة ضاحكين وهو يقرع عَلَى مزهره — ألعل عندهم عرساً ؟ انظري ، ما اظرف هذه الكلاب وانظفها ! ها سيدة تحمل كلباً وقد ألبسته قميصاً من الصوف . انظري الحوانيت مملوءة خبزاً وما كل متنوعة . انظري هذه الفواكه . ما احلاها ! تفاح ... برتقان ... عنب ... وكل الانواع ... أوّاه !

نطق بهذه الكلمات المتقطعة غلام لا يتجاوز العاشرة من سنيه وقد استوى في فراشه الحقير ماداً يديه المهزولتين المتشنجتين بحركات عصبية . عيناه جاحظتان تنظران في الفضاء ولا تريان شيئاً . وجهه قد جفّ ماؤه فكاد ان يشابه وجوه الاموات لولا احمرار ناري في وجنتيه سببته الحمى . ثيابه البالية تشف عن جسم ضئيل واضلاع ناتئة لا يغطيها سوى جلد رقيق

يكاد ان يلصق بها · وشفتاه ناشفتان لونهما قريب من الازرقاق وهما تتحركان لا بقوة الحياة ، بل غصباً بنوبة هذيان أدت اليها الحمى

— « تقبرني ، يا عيوني · تقبر أمك » اضطجع يا ولدي ، لئلا تبرد ·

قالت الام الحزينة هذه الكلمات وضمت ولدها الى صدرها ثم اضجعته عَلَى الفراش الخشن ودثرته ببقايا لحاف وبخرق من الثياب العتيقة

وبعد ان أغمض الغلام عينيه كأنه نائم · نظرت امه الى وجهه النحيل وقد عفّره غبار الموت · ثم تنهدت ورفعت عينيها نحو السماء ولم تقل شيئاً كأنها يئست حتى من السماء · ولم تذرف دمعة ، لان دموعها قد نفدت منذ زمان طويل · ولو نظر امروء الى افكارها لوجدها جامدة كأن ما مرّ عليها من الحوادث أوقف دورانها ·

وما اكثر ما مرّ عليها ! دهمها الزمان بما لا تقوى امرأة ضعيفة عَلَى حمله · سيق زوجها الكهل الى الخدمة العسكرية فظلت وابنها بلا معين ولا معيل · وانقطعت عنها اخبار ابنها الشاب الموجود في اميركا ولم تدرِ لذلك سبباً فباتت تحسب انه اصيب بداهية · ونفد ما عندها من القوت والمال فاضطرت ان تبيع كل ما تملكه من حلى وامتعة واوانٍ لكي تقيت نفسها وولدها · وانقطع القوت عن القرية فاصبحت مع بقيـة السكان تكافح الجوع بغير سلاح وتنظر الى المستقبل بطرف مدلهم لا يرى بصيص أمل · وزاد في الطين بلة مرض ابنها الغلام بالحمى لالتهامه كل ما وقع في يده لاملاء معدته الفارغة

اثرت في نفسها هذه الكوارث كلها فباتت تقضي ساعات برمتها دون

اتيان حركة ، جالسة في مكانها كالمذهولة ·

ولم يطل سكوت الغلام ، بل انتفض فجأة كالقصبة في عناق العاصفة وهب جالساً في فراشه ، صارخاً باعلى صوته ·

— امي ! امي ! انظري ، هوذا اخي جميل ··· جميل ! جميل ···

— « اسم الصليب ··· ولدي ··· عيوني ··· تقبرني · نم في فراشك يا حبيبي ·»

واخذت الام ابنها بين ذراعيها ومددته عَلَى الفراش بصعوبة · ثم جلست بجانبه وامسكته لئلا يثب مرة أخرى · واخذت تلاطفه بحنوها قائلة

— نم يا ولدي · الله يفرجها · لا بدَّ بعد الشدة من فرج · الرب لا ينسانا · نم يا حبيبي · لا عاشت الحمى ·

ولكن الغلام لم يعِ ما قالته امه فعاد يتكلم بصوت مختنق ضعيف كأن النشطة الاخيرة ذهبت بما كان فيه من القوة ·

— قلت لكِ هذا اخي جميل · انا اعلم انه جميل · فاني لا ازال اتذكره عندما سافر · انظري ، هوذا وديع ابن جارنا برفقته ومعهما ابن خالي نجيب · انظري ، ها هم قد دخلوا الى محل فيه مرايا كثيرة عَلَى الحيطان وصور معلقة وكاسات عَلَى الطاولات · امي ! ها هم يشربون عرقاً أحمر · اخ ! دفعوا الى صاحب المحل مجيديين من الفضة · اسمعي النقود ترن بجيوبهم · لا شك انهم اغنياء · امي ! اخي لا يراني اكلمه فلا يجيب · اتراه نسيني ؟

وصمت الغلام هنيهة كأنه ينتظر جواب سؤاله ثم رجع يتكلم همساً

كن يخاطب نفسه

— امي ! ها هم قد دخلوا الى مطعم كبير فيه اناس كثيرون امامهم صحون مملوءة بالطعام يتصاعد البخار منها · جميل ، بعيشك اعطني زيتونة وكسرة من الخبز !

وهنا بلغ الغلام ما في فمه من المرارة ثم فتحه كأنه ينتظر لقمة · ثم قال بانكسار

— اماه ! أخي لا يراني · لم يسمع طلبي · اوّاه · انظري ! قد احضر لهم الخادم سلطة ولحماً مشوياً ·

واستنشق الغلام الهواء بشدة حتى كاد بطنه يلصق بظهره كأنه يود ان يملأ جوفه برائحة الشواء · ثم تمتم بصوت يكاد ألاّ يسمع

— ليتهم يسمحون لي بلقمة واحدة ·

شعرت الام ببعض الراحة بعد سكوت ابنها · وكانت كلماته كسهام محددة تخترق قلبها المتوجع ، فتتململ في مكانها كالطريدة الجريحة حين اقتراب كلاب الصياد منها · فاخذت تتلمس بيدها جبهته الملتهبة وخديه وعنقه كأنها تود ان تنقل الحمى منه اليها · غير أن راحتها لم تدم طويلاً ، بل عاد الغلام الى الهذيان للمرة الثالثة

— رز بحليب ··· وقهوة ايضاً ··· أمي ، لعلهم مثلنا لم يذوقوا الطعام من زمن · امي ، اسمعي · هم يقولون ان اللجنة سترسل الينا مالاً وطعاماً · اسمعي اخي جميلاً يقول — « كنت اود ان ارسل مالاً الى اهلي ولكني

لا أرى طريقاً مضمونة · واخاف ألاّ تصلهم القيمة بتمامها · ولا اظن ان الاشاعات التي نسمعها حقيقة · مجاعة وامراض وما شاكل — هذا كلام ··» اسمعي الاخر يقول « انا ارسلت الى اللجنة ثلاثة ريالات ولكني لن افعل ذلك مرة أخرى لانهم لم ينشروا اسمي في الجرائد·» · والاخر يقول «اشكر الله لان اهلي كلهم هنا في المهجر فلا اهتم بأحد في الوطن » امي ، اسمعي اخي جميلاً يقول لهم — « دعونا من هذا الحديث وهيوا بنا الى المتنزه ! »

حاول الغلام ان ينهض ولكنه لضعفه لم يكد ان يرفع رأسه حتى هوى الى الوسادة · وكأن كل ما بقي له من القوة تألب واجتمع في صوته الذي كان حينئذٍ اشبه بصوت مجنون مقيد ثائر · فنادى صارخاً

— جميل ! جميل ! خذني معك · بحياتك · وديع ! ···

ولكن الام التاعسة وضعت يدها عَلَى فمه وقد تمزق فوءادها فلم تطق استماع بقية كلامه · وأخذت تتوسل اليه بصوت يعبر عن منتهى الشقآء؛ ان ينام ويستريح ·

ارتخت يد الغلام الممدودة · وقال وقد خارت قواه بصوت ملوءه اليأس

— اماه ! قد ركبوا عربة كبيرة وذهبوا · لم يلتفت احد منهم الي ّ

سكت الغلام · وساد في الغرفة سكوت رهيب ووحشة مخيفة · فلم يُسمع بها سوى تنفس الغلام المشبه الزفير المتقطع وتنهدات الام المسكينة التي فطنت ان تلك الليلة هي ليلة عيد الميلاد · فجلست تتنفس الصعداء وتقابل ماضيها بحاضرها وتراقب ولدهـا النائم بعين الحذر والشفقة ·

ثم جثت قرب فراشه تتضرع الى صاحب العيد ان يمن بالفرح

. . .

استيقظت الام في الصباح لا عَلَى رنين اجراس العيد لان يد الظلم القاسية محقت افراح العيد وحولت اجراسه المفرحة الى مدافع تدوي اصواتها وتفتك كراتها ، ولا عَلَى صياح الديوك في القرية او زقزقة العصافير عَلَى الاشجار لان الديوك ذبحت والعصافير هلكت جوعاً ، ولا عَلَى الحركة في الازقة لان القرية كانت كمقبرة لا أثر فيها للحياة ، بل عَلَى نور الشمس الداخل من النافذة — نور صباح عيد كان بهجاً فيما مضى ، وطالما فتح الناس اعينهم عليه قائلين — « المجد لله في العلا ، وعَلَى الارض السلام وفي الناس المسرة » مسارعين الى التنعم بملذات العيد وبهجاته . اما الان فلم يبق من افراح العيد سوى هذا النور الساطع عَلَى ارض صامتة مكسوة بالثلج . وهو نعمة لو قدرت بلايا الحرب عَلَى منعها عن البشر لفعلت .

نظرت الام من النافذة الى الارض المتوشحة بسرابيل الصباح ولبثت في مكانها لا تقوى عَلَى الحركة لضعفها ولخوفها ان توقظ غلامها النائم . ولكنها ذعرت بعد حين اذ سمعت الباب يُقرع ، فلم تتحرك من مكانها كأنها لم تصدق سمعها ، أو حسبت انها لا تزال نائمة هائمة في عالم الاحلام ولكن القرع تكرر وسمعت من الخارج صوتاً موءنساً يقول — « المجد لله ! » فجمعت قواها ونهضت بسرعة غير مصدقة . ولم تجرأ عَلَى التقدم نحو الباب بل صرخت عن بعد بصوت ظنته عالياً ولكنه لم يكن سوى همس ضعيف

— من الطارق ؟

فاجابها الصوت من الخارج

— افتحي يا اختي ! لا تخافي · نحن من قبل جمعية الصليب الاحمر · وقد جئناكم بالمدد ·

وقفت الام مكانها كالصنم لا تحرك قدماً من الانذهال واختلطت افكارها الثائرة فاصبحت لا تدري اتوقظ ابنها وتبشره بالفرج ام تتقدم وتفتح الباب · واخيراً عوّلت عَلَى الامر الثاني خوفاً من ان يتعب القوم من الانتظار او يطرأ عليهم ما يغير افكارهم فيذهبوا · فركضت الى الباب وفتحته بيد مرتجفة · فدخل الغرفة ثلاثة رجال ولا دخول المجوس الى المغارة يحملون صرراً صغيرة وسلة فيها بضعة ارغفة وعلباً من الطعام المحفوظ · فلما وقع نظر الام عَلَى السلة اختطفت منها رغيفاً وسبقتهم الى حيث كان الغلام النائم صائحة كالمجنونة رافعة الرغيف فوق رأسها

— ولدي ! انظر · خبز ! خبز ! قم كل · لا عاش الجوع · قم يا حبيبي

ترقرقت الدموع في عيني مندوبي الصليب الاحمر لتأثرهم من حركات الامرأة وصوتها رغم تعودهم مشاهدة الشقآء وفواجعه اينما ذهبوا · فتقدموا في اثرها نحو فراش ابنها فوجدوها مكبة فوق الغلام تخاطب نفسها قائلة

— عجباً ! لا يزال نائماً · الافضل ألاّ اوقظه · دعوه يستريح

فتفرس احدهم في الغلام النائم · ثم سأل الام بضعة اسئلة عن مرضه واقترب من مضجعه وانحنى فوقه مستفحصاً وجس نبضه ثم وضع اذنه عَلَى

صدره ووقف جامداً مطرقاً لا يجسر عَلَى النطق · فاقتربت منه الام وسألته بصوت مرتجف

— هل يشفى قريباً ، يا سيدي ؟

فلم يجب الطبيب بشيء بل نظر الى رفاقه نظرة مبهمة · فتقدمت الام نحوه واعادت عليه الكرة بلهجة الالحاح

— رحماك ، يا سيدي · قل لي — متى يستطيع غلامي مغادرة الفراش؟

فهزّ الطبيب رأسه واجاب بحزن ·

— يا اختي ، ان ابنكِ لن يقوم · قد مات منذ الصباح · مات واستراح · فتدرعي بالصبر · وسلمي امركِ الى الله

جمدت الام كالمصعوقة · لم تولول ، ولم يملأ صياحها القرية ، ولم تنتف شعرها ، وتلطم وجهها ، وتمزق ثيابها ، ولم تذرف دمعة ، بل لبثت تقلب عينيها المتسعتين المملوءتين هولاً والاماً لا تحد بين زوّارها وبين جثة الغلام وأخذت تهذي بصوت ضعيف وعلامات الجنون تسري في عضلات وجهها ·

— مات ···؟ من قال انه مات ؟ ولدي ! ··· اليوم عيد ··· قم كل يا ولدي ! ··· المجد لله في العلا ··· وعَلَى الارض السلام ؟ هوذا خبز وثياب لي ولك ··· وفي الناس المسرة ! ··· قه قه قه ··· مات ؟ لا ، ما مات ، مات العيد ···

· · ·

بعد ايام طرقت باب الغرفة جارة مسنة جاءت لتتفقد حالة الام المسكينة. ولما لم يكن مجيب دفعت الباب وفتحته عنوة ودخلت ، فوجدتها ملقاة على الارض لا حراك بها ؛ وعيناها جامدتان تنظران بهول صامت قاس نحو السماء ، وباحدى يديها قنباز غلامها الميت وبالاخرى صورة ابنها المسافر ، وامامها ارغفة الخبز وعلب الطعام مصفوفة لم تُمس .

الشباب يذبل ، والحب يضعف ، واوراق الصداقة تسقط ، ولكن حنان الام يبقى نضراً . (هولمز)

حكمة النساء في ولادة الاولاد وتربيتهم . (تنيسون)

يحسن أن تموت لاجل وطنك ، ولكن الاحسن ان تحيا لاجله .

(مونتالمبرت)

الانسانية فوق سائر الامم . (افلاطون)